تجديد الخطاب الإسلامي (مفهومه، أشكاله، محاوره، آثاره)

عمر حابس أحمد نوافلة

ملخص

عندما كانت مشيئة الله تعالى أن يكون الإنسان خليفةً في الأرض، كانت مشيئته تعالى أن يرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فبلغوا رسالات ربهم، وكانت سنّة الله فيهم أن يتعرّض لهم بعض أقوامهم بالأذى والتكذيب، فقد آتى الله رسله الحكمة وفصل الخطاب، وأمرهم بالصبر على أقوامهم، وعدم اليأس من حالهم، وقد خاطب ربّ العالمين سيدنا محمد ﷺ، بقوله: { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ } (سورة الأحقاف: 35). ولنا في رسول الله أسوةٌ حسنة، فقد أمرنا الله تعالى كدُعاة بلين القول وحسن الخطاب، وسار الدّعاة من الرعيل الأول على ذلك، لتتوالى الأيام، وتتغير الأحوال في عصرٍ حلّت به تحدّيات فكرية، وتغيّر فيه أسلوب الخطاب، فأصبحت تعرف وتنكر، ولكن تبقى ثوابتنا ترسم لنا الطريق مهما تغيّرت الأحوال، إذ يقول ربّ العالمين: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (سورة النحل: 125). لقد تغيّرت أحوال الناس في هذه الأيام، وبقي على عاتق الدّعاة دعوة الناس إلى الله تعالى، وإذا ما نظرت إلى بعض من ينتسبون إلى الإسلام تجدهم قد تطرّفوا في خطابهم، فأساءوا وما أحسنوا، فانتشر فكر التكفير والتفجير، بسوء فهمٍ للنصوص تارةً، وبِلَيِّ أعناق النصوص تارةً أخرى، مما بات محتّمًا، وضرورةً ملحةً تجديد الخطاب الإسلامي، مع البقاء على ثوابتنا من القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة.

Renewing Islmaic Sppech: concept, form, domains and effects

Omar Hebes Al-nawafleh

Abstract When God's will was to make the human a successor in the earth, His will was to send messengers and missionaries, so they told people the messages of their Lord, and the God’s well was that some of their people would be subjected to harm and denial. God brought His messengers to wisdom and to the truth of speech, And the lack of despair of their situation, has addressed the Lord of the Worlds, our master Muhammad peace be upon him, saying: " o bear with patience, (O Prophet), even as the Messengers endowed with firmness of resolve (before you) bore with patience, and do not be hasty in their regard”Al-Ahqaf: 35). We have in the Messenger of Allah a good example, God has ordered us as advocates of good speech and good speech, and the preachers marched from the first generation on it, for days to come, and the situation changes in an era of intellectual challenges, and change the style of discourse, became known and deny, but remain constants draw We have no way, no matter what the circumstances have changed, as the Lord of the Worlds says: " As the Lord of the Worlds says: Call upon the path of your Lord with wisdom and good exhortation, and argue with them that which is better " (Al-Nahl:

125). People have changed in these days, and it remains on the preachers to invite people to God, and if you look at some of those who belong to Islam you find them have been extremism in spreading the thought of extremism and bombing, misunderstanding the texts sometimes, and the most elegant texts sometimes , Which has become imperative and urgent need to renew the Islamic discourse, while remaining on our constants of the Qoran and the Sunnah.

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلمه البيان، {2 خَلَقَ الْإِنسَانَ {3} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } (سورة الرحمن: 4– 5) آتاه حسن الجواب، وعلمه فصل الخطاب، إذ الخطاب من أهم المقاييس الدالة على نضج الأمة، ووعيها، وتقدمها، ومقدرتها على التبليغ والحوار؛ لتحتل مكانة راقية بين الأمم، ويدل هذا على نجاحها في اقناع الآخرين بوجهة نظرها في أي مسألة من مسائل الحياة.

وتعتبر قضية الخطاب من أهم القضايا التي تشغل بال الداعية المسلم في هذا العصر، الذي أصبح مشحونًا بالتكفير والتفجير، والذي حلّت به التحديات الفكرية، وتأزمت فيه قضية الخطاب، وما أصبح موضوع الخطاب يتوقف عند التبليغ فحسب، بل يتعداه عند الداعية الناضج إلى التأثير والتغيير في مخاطبيه، بل ويتخذ كل الأساليب المؤثرة، مستخدمًا كل أسلوبٍ جديد مؤثر، متخذًا منهجًا واضحًا رسمه له رب العالمين في كتابه، بقوله: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (سورة النحل: 125).

لقد أطّرت هذه الآية كما غيرها من آيات القرآن الكريم أسس الدعوة، ورسمت الطريق أمام الداعية في خطابه، فلا يكون الخطاب الإسلامي إلا بطرق مخصوصة مرسومة بينة واضحة المعالم، { بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ } (سورة النحل: 125)، وإذا ما اضطر إلى جدال فليكن بالتي هي أحسن، {وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (سورة النحل: 125)، ليزداد الخطاب جمالًا فوق جماله، ويزداد قوّةً في الإقناع، إذ هو المقصود من الخطاب.

يقول القاسمي: (والمعنى: اسلك في الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة، فإن الله هو أعلم بحال من لا يرعوي عن الضلال بموجب استعداده المكتسب، وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما فيه من خير جبلّي، فما شرعه لك في الدعوة هو الذي تقتضيه الحكمة، فإنه كافٍ في هداية المهتدين، وإزالة عذر الضالين) [1].

[1] القاسمي، محاسن التأويل، ج6، ص422.

وبما أن الخطاب الإسلامي هو وسيلة توصيل ما يريده ربّ العالمين للناس، فلا بدّ أن يكون خاضعًا لأسس بيّنها الشارع الحكيم، ولن يحقق الخطاب مراده إلا إذا التزم هذه الأسس، ومن هنا تظهر وظيفة رسول الله ﷺ ومهمته الدعوية، ومن جاء بعده إلى يوم الدين.

مشكلة البحث

يشهد العالم في هذه الأيام فورة هائلة جدًا في التقنية والاختراع وتطوير المعلومة، فأصبح من الضروري أن يُجدّد الخطاب الإسلامي؛ مواكبةً لهذا التطور الضخم، فمن الضروري أن يكون خطاباً دينياً واعياً، معاصراً يواكب نهضة العصر، وإلا حُكم على الخطاب الديني بالجمود، فأصبح تجديد الخطاب الديني ضرورةً ملحّة ليعالج قضايا الإنسان، حريته، وأمنه، وحياته، كما يستهدف بناء الحضارة وحفظ النظام العالمي.

المبحث الأول

مفهوم التجديد والخطاب والخطاب الإسلامي

التجديد: يقول أحمد حسن الزيات: (جدد الشيء : صيّره جديدًا، وتجدّد الشيء : صار جديدًا، واستجدّ الشيء : صار جديدًا) [2].

ومن معاني التجديد الإحياء والإصلاح، كما في حديث رسول الله ﷺ "إن الله تعالى يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"[3].

يقول أبو الطيب شمس الحق العظيم أبادي: (إن المراد من التجديد إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات، فيحتاج حينئذٍ إلى تجديد الدين) [4].

معنى كلمة خطاب: يقول ابن منظور: (والخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبةً وخطابًا، وهما يتخاطبان، وهي مراجعة الكلام، ومنه فصل الخطاب وهو أن يفصل بين الحق والباطل) [5].

والمتتبع لمعاني الخطاب يجد أنه كلام موجه مشافهةً أو كتابةً، يقصد صاحبه التأثير على الطرف الآخر، ومحاولة إقناعه بوجهة نظره، فيكون بذلك المقصود من الخطاب توصيل الأفكار إلى الآخرين.

يقول أبو البقاء الكفوي: (الخطاب هو الكلام الذي يقصد به الإفهام، إفهام من هو أهل للفهم، والكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطابًا) [6].

---

[2] الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، ج1، ص109.

[3] السجستاني، سنن أبي داوود، باب ما يذكر في قرن المئة، حديث رقم 4291، ص768.

[4] العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داوود، ج11، ص263.

[5] ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص361.

ويمكن القول أنّ الخطاب هو الأداة التي يتمّ بها التواصل بين الشعوب، كما ويمكننا القول أنه عن طريق الخطاب يمكن السيطرة على العقول، وإذا تمّت السيطرة على العقول فهذا يعني السيطرة على التوجهات والأفكار.

معنى الخطاب الإسلامي: أما وقد مرّ بنا معنى الخطاب، فقد يُضاف الخطاب إلى شيء وينسبُ إليه، كما هو الحال في قولنا الخطاب الإسلامي، فإذا نُسب إلى شيءٍ عُرف به، ويقال الخطاب السياسي ليكون تعبيرًا عن شيء تُوضَّح به مجالات السياسة، فيكون الحديث في حقل السياسة.

أما بالنسبة للخطاب الإسلامي فقد نُسب إلى الإسلام فيكون الحديث فيه عن معطيات الإسلام، وطريقة التعبير فيه توضح حقيقة الإسلام في مجالات الحياة المختلفة، بل ويكون الخطاب الإسلامي الأداة المعبّرة عن تصوّر الإسلام للكون وللإنسان.

يقول الدكتور محمد يونس: (هو مجموعة المقولات والتصوّرات والرؤى، التي يطرحها علماء الدين والدعاة والمفكرون، إزاء قضايا المجتمع استنادًا إلى الدين الإسلامي بشكل مباشر أو غير مباشر) [7].

التجديد في رأي المؤلف لا يعني تغييرًا في جوهر الدين أو أصوله، إنما يعني إعادته إلى النقاء الذي كان عليه يوم نشأته حيث الأصالة الفكرية لأركانه وثوابته، أي تجديد الإيمان به والالتزام بتعاليمه الصحيحة بعيدًا عما يعتريها من شوائب، ومن ناحية أخرى يعني تجديد الدين القدرة على استيعاب مستجدات العصر، وما يحمله من قضايا لم تكن معروفة من قبل، وتحتاج إلى بيان موقف الشريعة منها، ويتم ذلك من خلال الاجتهاد سواء كان فرديًا أو جماعيًا.

فهنا التجديد لفهم النصوص الشرعية لا النصوص ذاتها إذ النصوص ثابتة، وفي هذا التعريف يكون الخطاب ما يستند إلى مرجعية إسلامية من القرآن والسنة، وليس المرجعية ذاتها إذ المرجعية ثابتة ولا يمكن أن تكون بحاجة إلى تجديد، إذ الخطاب الرباني لا يتأثر بتغير الزمان أو المكان، ولا يقع تحت تأثير التطوّر فهو الذي يستوعب الأحداث، إذ من صفات الخطاب الرباني الخلود؛ لأنه خاتم الكتب السماوية، وهو الباقي إلى يوم الدين.

أما التعريف الآخر للخطاب الشرعي فهو: (خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء، أو التخيير، أو الوضع، والمقصود بخطاب الله كلامه مباشرةً وهو القرآن، أو بالواسطة وهو ما يرجع إلى كلامه من سنةٍ أو إجماع، وسائر الأدلة الشرعية التي نصبها الشارع لمعرفة حكمه) [8].

فالخطاب الديني حسب هذا التعريف هو الشرع ذاته، ولن يكون تجديد الخطاب الديني في هذا التعريف كما هو الحال في التعريف السابق، ويرفض أصحاب هذا التعريف كلمة تجديد الخطاب الديني، ودليلهم على قولهم ذلك أن

---

[6] الكفوي، الكليات، ص170.

[7] يونس، تجديد الخطاب الإسلامي، ص17.

[8] زيدان، الوجيز في أصول الفقه، ص23.

الدين قد اكتمل:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا} (سورة المائدة: 3)، فبعد تمامه لا يجوز دعوى تجديده وما ينبغي ذلك؛ لأنه الرسالة التي نزلت من عند الله.

وإذا أردنا أن نوفق بين الرأيين فيكون بالمفهوم الأول التجديد منوطًا بعلماء الدين ومفكريها، وهذا الخطاب يتطوّر حسب الزمان والمكان، إذ هو الأداة المعبّرة عن التصوّر الإسلامي، وتوضيح حقائقه في كل مجالات الحياة.

وأما في المعنى الثاني فيكون التجديد ما هو إلا تجديد لعلاقة المسلم بدينه، وعودته إلى صافي منابعه، بالتزام الأحكام والسنن، وإماتة ما علق فيه من بدع، وإبقاء الإسلام حيًا في النفوس.

وفي ذلك يقول البوطي: (لا بدّ الآن من التمييز بين أمرين، الخلط بينهما يضرّ بكليهما، بين الدين الذي هو ثابتٌ لا يتغيّر، وبين أنماط التديّن والتي قد تختلف في بعض جزئياتها باختلاف الزمان والمكان والحال، إذ لا بدّ من أن يركز الخطاب الديني على كليات الدين ومقاصده، لا سيما التي تمثل صورة مشوّهة في نظر البعض عن الإسلام) [9].

ويرى الباحث أنه لا بدّ من تغييرٍ للخطاب الذي يستند إلى النصوص الثابتة؛ من أجل تغيير أنماط عقول اعتمدت أنماطًا خاصّةً بها كانت سببًا في تشويه تصوراتها للحياة.

الحاجة إلى تجديد الخطاب الديني

إنّ الحاجة إلى تجديد الخطاب الديني لصيقةٌ بحاجته إلى حل قضاياه الجديدة، وكم من القضايا التي تجد على البشرية، فقد غرقت المجتمعات في مشاكل عدّة، جعلتها في حيرةٍ ودهشة، وعلماء الإسلام في بحثٍ مستمر متواصل لحل هذه القضايا، وحلّ كل قضايانا في كتاب الله.

يقول الدكتور عمر نوافله: (إن مسألة حل المشاكل سواء كان عند الفرد والمجتمع، مرهونةٌ بالتزام القيم الأساسية والمقاصد الشرعية، ولا ننسى أن الإنسان يجد الحلول الكافية مادام يتبع نهج الله، وما من قضيةٍ إلا وحلها في كتاب الله) [10].

فالتجديد مطلوبٌ، إذ نشأ جيل استقى أفكارًا خاطئة، نشأ عنها تيّارات وحركات تتبنّى العدوانية، وتسعى أن تغرس هذا الفكر في الشباب الصاعد، تعادي كل ما سوى فكرها، فتنتج عن هذه المشكلة فكرًا إرهابيًا شوّه صورة الإسلام، ووصول الإسلام إلى الغير بصورةٍ مشوّهة، فبات من الضروري تجديد الخطاب الديني، اجتهادًا في روح النص، لا تجديدًا للنص ذاته، على أن يستمد هذا الخطاب الجديد مبادئه من تعاليم كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، مراعيًا مقاصد الشريعة.

يقول القرضاوي: (التجديد الحقيقي مشروعٌ بل مطلوب في كل شيء: في الماديات والمعنويات، في الدنيا والدين، حتى إن الإيمان ليحتاجُ إلى تجديد، والدين يحتاج إلى تجديد) [11].

---

[9] البوطي، الإسلام والتجديد المطلوب، ص50.

[10] نوافله، الإسلام وقضايا العصر، ص4.

تقول الدكتورة فاطمة عبد المطلب: (ويريد القرضاوي بالاجتهاد والتجديد، بتوسيع وتفصيل بعض القواعد التي بحثها علم أصول الفقه، وقد أوضح هذا المعنى قائلًا: وهناك مسائل تتعلق بأصول تحتاج إلى مزيد إيضاح وتفصيل) [12].

المبحث الثاني

أشكال الخطاب الديني

مرّ في معنى الخطاب أنّه فنٌّ كلامي يُلقى على سامع، وقد يكون كتابةً كما يكون مشافهةً للجماهير بهدف التأثير عليهم في غرض الخطاب، وعليه يمكن أن يكونَ خطابًا سياسيًا يقوم به أرباب الساسية، أو دينيًا، أو اجتماعيًا، أو علميًا فيتنوع حسب ظروفه والهدف منه.

فهو فنّ نثري ويُعدّ مؤشرًا على وعي الأمم، وأداة إلقاء الأوامر على الجمهور، وخاصةً في حالات الحرب والسلم، بل وينتقون خطيبًا مفوّهًا؛ ليكون له التأثير لإقناع الآخرين بفكرةٍ ما وجعلهم يتقبلونها ويقتنعون ويؤمنون بها، وصدق رسول الله: "إنّ من البيان لسحرًا"[13].

وعليه فالخطاب الديني شكلٌ من أشكال الخطابات المتنوعة، إلا أنّ الخطاب الديني ذاته يكون بأشكال عدّة، إذ تتعدد الوسائل، وبما ان الخطاب الديني خطاب وعظٍ، فيكون بعدة وسائل، كخطبة الجمعة والأعياد والمناسبات الدينية، وقد تُسجّل هذه الخطب والكلمات وتبثّ على أدوات التسجيل المختلفة، وقد توزّع على شكل كتيّبات أو مطويّات.

وللخطاب من حيث المصدر شكلان:

- الخطاب الإلهي (الرّباني)، وهو خطاب الله: وهو ما كان مصدره ربّ العالمين، إذ هو الخطاب للناس كافّة؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وهذا الخطاب فيه خير البشرية ما التزموا فيه، وقد أمرهم الله أن يعتصموا بحبل الله، وقد وجّه هذا الخطاب الإنسان أن يتفكر ويتدبر، وجعل فيه السعادة الدائمة ما التزم به الإنسان، ويتمثل الخطاب الإسلامي بأساسين هامين هما القرآن الكريم والسنة النبوية، وأول هذه المصادر وأهمها هو:
- القرآن الكريم: وهو "الكتاب المنزل على سيدنا محمد، وهو ما نُقل إلينا بالتواتر بين دفّتي المصحف"[14] ، وهو إجماعًا المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامي.

وبدعوة القرآن الكريم إلى التفكّر يعدّ هذا من التجديد، فقد حث على معرفة الكون وعلومه، { قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} (سورة يونس: 101)، فلا ينبغي أن يقف الإنسان عند حد معين، بل يبحث

---

[11] القرضاوي، فتاوى معاصرة، ص141.

[12] عبد المطلب، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، ص172.

[13] البخاري، صحيح البخاري، باب إنّ من البيان لسحرا، حديث رقم 5767، ص689.

[14] الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج1، ص137.

ويجدد ويطوّر ما استطاع، وقد مُزج ذلك بالإعجاز الذي أبهر كل الخلق، فيجد كلُّ جيل في القرآن ما يدعوه إلى الإيمان به؛ تسليمًا لما يرى من إعجازه واكتشافه لما في الكون من علوم.

وقد تكفل الله بحفظه، { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (سورة الحجر: 9)، وهو يستوعب الحياة على مرّ عصورها، ففتح عيون الخلق إلى الكون وما فيه من أسرار، فأبهر الخلق بإعجازه، فقد كان يتطرق للكونيات، خبيرًا بدقائقها، عليمًا بأسرارها.

يقول عبدالقاهر الجرجاني: (أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادقوها في سياق لفظه، وبدائعُ راعتهم في مبادئ آية ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها....وبهرهم أنهم تأملوه سورةً سورةً، وعُشرًا عُشرًا، وآيةً آية، فلم يجدوا في الجميع كلمةً ينبو بها مكانُها، ولفظةً يُنكر شأنُها) [15].

- السنة النبوية: هي في اصطلاح الأصوليين: (ما نُقل عن النبي ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقرير)[16]، وهي المصدر الثاني للتشريع بعد القرآن الكريم، بل وهذا المصدر لا يقلّ مكانة عن كتاب الله تعالى في الاستدلال، قال تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا } (سورة النساء: 65)، وقال ﷺ: "إني أوتيت القرآن وما يعدله"[17].

وقد كان صحابة رسول الله ﷺ حريصين كل الحرص على تلقي السنّة عن رسول الله، بل ويتناوبون من أجل تلقيها عن رسول الله. عن ابن عمر رضي الله عنه قال: "كنت أتناوب مع جارٍ لي من الأنصار، كنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يومًا، وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئتهُ بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك"[18].

وقد كان صحابة رسول الله يرحلون من بلدٍ إلى بلد، ويقطعون الأميال بحثًا عن حديث رسول الله ﷺ، فكانوا أعلامًا في معرفة حديث رسول الله، وكما حافظوا على القرآن الكريم ولقي منهم عناية فائقة سواءً بحفظه بالصدور أو السطور، فقد اهتموا بتلقي سنة رسول الله، وإن لم تكن قد كتبت في بداية أمرهم بالصورة الرسمية، فقد كان بعض الصحابة يكتبون عن رسول الله ﷺ.

وهذان المصدران القرآن والسنة متلازمان، ومرتبطان ارتباطًا وثيقًا، ولا انفصال بينهما، بل العلاقة بينهما تكامليّة، ويقوم عليها الخطاب الإسلامي، وبهذا المعنى يكون الخطاب الإسلامي ثابتاً، ولا تجديد عليه؛ لأنه نص ربّاني، ولا تجديد على النصوص، وهذان المصدان يُعدّان الشكل الثابت الذي لا يتغير، ولا يؤثر عليه تغيّر الزمان أو المكان، بل يصلحان في كل زمانٍ ومكان، وهذا هو الشكل الأول من أشكال الخطاب الديني بشقّيه: القرآن والسنّة.

---

[15] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص39.

[16] السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلام، ص47.

[17] ابن حبان، صحيح ابن حبان، ج1، ص25.

[18] البخاري، صحيح البخاري، باب التناوب في العلم، حديث رقم 89، ص426.

وأمّا الشكل الثاني من أشكال الخطاب الإسلامي هو ما يمكن تجديده، وهو الذي يرى العلماء ضرورة تطويره وتجديده والحاجة إلى تجديده، وهو يعتمد على فهم الشكل الأول، ويكون هذا الشكل بشقيه: الاجتهاد والقياس بالإضافة إلى مصادر أخرى مختلف عليها بين العلماء، كالاستحسان والمصالح المرسلة وسد الذرائع وغيرها.

ومن خلال هذا الشكل يمكن الارتقاء بالخطاب الإسلامي المعاصر، من غير أن نتنازل عن الشكل الأول أو المساس به، بل اعتباره شاهدًا على هذا التطوّر والتجديد.

إنّ تجديد الخطاب الإسلامي بالشكل الثاني يعتبر من أكبر وسائل مواجهة الحملة الشرسة، التي يقودها أعداء هذا الدين ضدّ الشكل الأول، وهو القرآن والسنّة وأحكامهما، كما ويعد هذا التجديد تطويرًا للخطاب الإسلامي وارتقاءً به؛ ليتماشى مع مستجدّات العصر الحديث.

يقول الترابي: (الخطاب الإلهي هو أصل الخطاب الإسلامي البشري؛ لأنه منشأ الخطاب ومبدؤه، وهو جذره الذي سبق وجوده وجود الخطاب الإسلامي البشري؛ ولأنه صادرٌ عن الأصل، فهو من عند الله، والمرجع الذي يتعيّن أن يُردّ إليه ما سواه، ويحتكم إليه فيه) [(19)].

فهذان الشكلان للخطاب الإسلامي، الأول إلهي وهو القرآن والسنة، وهذا الشكل كاملٌ كمالٌ مطلق إلى قيام الساعة، وهو بمثابة مبادئ ثابتة لا يعتريها النقص ولا تتغير بتغيّر الزمان.

وأما الثاني وهو بشري مستمدٌ من الشكل الأول فهمًا واجتهادًا واستنباطًا، وقد ترك لنا الشارع الحكيم مساحةً واسعةً نجتهد فيها، على أن يكون خاضعًا للشكل الأول الإلهي.

الحذر من كلمة حق أريد بها باطل

إذا انحرف التدين عن الفهم السليم وارتبط بأفهامٍ خاطئة، فإنه يؤدي إلى عكس النتائج المرجوّة، وإذا ارتبط بأصوله الصحيحة والفهم الصحيح عند ذلك تكون الهداية الحقّة التي تؤدي إلى سعادة البشرية، وينتشر الصلاح في الأرض ويعم السلام.

كما ويؤدي التدين الخاطئ إلى التطرف والإرهاب، وتعمّ أفكار الظلام، وينشأ خطاب باسم الدين لا يمتّ إلى الدين بصلة، بل يكون هذا الخطاب ذريعة لدى أعداء الإسلام في محاربة الإسلام باسم محاربة الإرهاب، ويصبح المجال مفتوحًا لتدخل غيرنا بشؤوننا، كما هو الحال في هذه الأيام، دخل علينا أعداؤنا بحجة محاربة التطرف والإرهاب.

ويمكن القول أنه ظهر هذا الفهم الخاطئ لدى بعض الحركات الإسلامية، وتبنّت هذه الحركات خطاباً متطرفاً، طغى فيه الفكر الجهادي على جانب الخطاب الدعوي؛ مما أدى إلى ظهور عنف واضح للعيان، جعل الناظر يرى أن

[(19)] الترابي، تجديد الفكر الإسلامي، ص45.

الدين يطغى عليه جانب القتل والعنف والتفجير. بل وتجاوز الأمر إلى أن وصل الفهم عند هذه الحركات أن تبنّت خطابًا تكفيريًا لكل من يخالف فكرهم، حتى لو كان من أبناء جلدتهم ويدين دينهم.

ومن هنا جاءت الحاجة إلى تجديد الخطاب الديني، وتصويب ما انحرف في أذهان البعض، فبات لا بدّ من مراجعة الخطاب الديني، وهذا حق ومطلوب، ومراجعة الخطاب الديني هذا عندما نادى به الغرب، قصروا الخطاب الديني على الخطاب الإسلامي، مع أنّ الخطاب الديني لا يقتصر فقط على الخطاب الإسلامي، فالخطاب النصراني والخطاب اليهودي وغيرها كلها خطاب ديني، وما الخطاب الإسلامي إلا جزء من الخطاب الديني.

وبهذا المفهوم ذهب قسمٌ من المفكرين والعلماء إلى رفض فكرة تجديد الخطاب الديني؛ لأنه وبرأيهم ما هذه الدعوى إلا مكرٌ من أعداء هذا الدين، أرادوا من خلاله توجيه سهامهم إلى الدين، والطعن به، والإساءة إليه، وهذا ما يجب أن نحذره خشية أن تكون كلمة حقٍ أرادوا بها باطل.

وإذا أردنا أن نتفكر جيدًا في خطورة هذه الفرية التي قام بها أعداء الدين، نجد أنهم من خلالها منعوا الدّعاة المخلصين من الدعوة، وقصرها على أصحاب الولاء لأهل الباطل، وظلم واعتقال من يخالف ذلك، وقصر الفتوى على مجمعات فقهية مصنوعة صناعة فكرية، تركت الأصول واهتمت بالفروع، ليس لها هم إلا إرضاء جور الحاكم ومسايرة ظلمه، وتمّ الترويج لهذه المؤسسات إعلاميًا، حتى أصبح عامّة الناس يرون غيرها منكرًا.

المبحث الثالث

محاور الخطاب الإسلامي

لا بدّ لأي خطاب ناجح من أسس يرتكز عليها، ومن المعلوم أن الخطابة فنّ لها أصولها وضوابطها وأسسها، ولا بد أن تأتي بهذه الأسس حتى يكون الخطاب ناجحًا، ولا بدّ من توفر صفات في محاور الخطاب الإسلامي حتى يكون ناجحًا، ويكون له الأثر في حياة المخاطبين، فلا بدّ من صفات في الخطاب وصفات في صاحب الخطاب، وهذا ما يسمى بمحاور الخطاب الإسلامي، وهذه المحاور هي:

1. المخاطِب: وهو صاحب الخطاب، وهو صاحب مهمة التبليغ، ويعرفه البيانوني بقوله: (هو المبلّغ للإسلام، والمعلم له، والساعي إلى تطبيقه، أي القائم بالدعوة) [20]، ويقصد إرشاد الآخرين والتأثير فيهم، ولا بدّ أن يكون مستعدًا أتمّ الاستعداد لخطابه، ولا بدّ من التخطيط والإعداد وجمع الأدلة والبراهين والأمثلة الواقعية؛ لأنه الداعية الذي ينبغي أن يحرص على إقناع المخاطبين والتأثير فيهم.

يقول مصطفى اسعيفان: (على الداعية أن يعرف غايته أولًا وأن يفهمها حق الفهم، فإذا فهم غايته استطاع بفطرته أن يدرك الوسائل التي تحقق له هذه الغاية، وغاية الداعية هي غاية كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها،

[20] البيانوني، مدخل إلى علم الدعوة، ص153.

وهي الله سبحانه وتعالى، فعلى الداعية أن يعلم أنه خلق لله أولًا وأخيرًا، {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ } (سورة الذاريات: 56) [21].

فقد كان رسول الله ﷺ يدعو النّاس ويقوم بتذكيرهم وما النتائج إلا على الله تعالى، قال تعالى: {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ } (سورة العنكبوت: 18) وهكذا الداعية فهو يقوم بوظيفة الدعوة إلى الله، والله تعالى هو الذي يتولى النتائج.

وقد جعل الله الأجر العظيم لمن دعا إلى الله، بعد أن يقوم حسب مقدرته بخطاب الناس ودعوتهم، فقد قال رسول الله ﷺ: "من دعا إلى هدىً كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص من أجورهم شيئًا"[22].

وإن مما ينبغي أن يتوفّر في المخاطِب أن يكون على علمٍ بما يريد أن يدعو إليه، ليّن الجانب لمن يخاطبه، {وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ} (سورة آل عمران: 159)، حَسَن الأسلوب، ولا يخفى على المتعامل ما في حسن الأسلوب، وطريقة الخطاب من جميل الأثر في الناس، فها هو ربّ العزّة يرسل موسى إلى فرعون ويوصيه بحسن الخطاب، {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } (سورة طه: 44).

فهذا موقف الداعية من الطاغية، وهي سنّة لكل الدّعاة على مرّ العصور، وهي قاعدة صالحة لكل زمان ومكان. فإذا كان هذا موقف أحبّ الخلق في ذلك العصر إلى الله من ألدّ أعداء الله، فحريٌّ بالداعية المسلم أن يلين جانبه ويحسن في خطابه كلمته، وكم من كلمةٍ وقعت موقعها في قلبٍ مفطورٍ على الفطرة فآتت أُكلها، وردّت ضالاً عن الهوى إلى الهدى.

2. المخاطَب: وهو الذي يتلقى الخطاب فردًا كان أو جماعةً، وقد يكون المخاطَب باحثاً عن حقيقة، يريد السماع ويحب الوصول إلى الصواب، وقد يكون جاحداً معانداً، يُجانب الصواب، ولكلٍ أُسسٌ في الخطاب وطريقة في التعامل، ولا ينبغي أن يكون الخطاب للجميع واحداً، بل نوع المخاطَب هو الذي يحدد أُسس الخطاب.

الأوّل: الذي يريد السماع والتلقّي، ولكن قد يكون حجبه عن الحقيقة هوىً مُتّبع ولذّة دنيا فابتعدَ عن الحق، وقد يكون تكاسلاً في الدنيا وميلًا إلى الدّعةِ والرّاحة، وهذا النوع ينبغي أن تكون حكمة تجاههم من المخاطِب، وبمجرّد تذكيره غالباً ما يرجع إلى رشده وهُداه، ويتقبّل أمر الله، وهنا كان للتواصل بين المخاطِب والمخاطَب دورٌ كبير، وهذا الصنف ينبغي أن يكون له نصيبٌ من شفقةِ المخاطَب، وكم كان رسول الله يحرص عليهم، قال تعالى: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } (سورة التوبه: 128).

ومن واجب المخاطِب أن يُذكر هذا الصنف من المخاطبين أنّه يجب عليهم أن يستجيبوا لأمر الله ونداء الحق، ولا يمنعهم الكِبر من الاستجابة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ } (سورة الأنفال:

---

[21] اسعيفان وذياب، فقه الدعوة إلى الله، ص103.

[22] النيسابوري، صحيح مسلم، باب من سنة حسنة أو سيئة، حديث رقم 2674، ص754.

24)، وفي هذه الحالة تجد أن المخاطَب لديه الرغبة في الخير، تُحرّك هذه الرغبة بالحكمة والموعظة الحسنة، وضرب الأمثال.

الثاني: المخاطَب الذي لا يريد السماع بل يعرض عن الخير ويجادل بالباطل، وقد أطلق عليهم القرآن الكريم لفظ الملأ في عدّة مواضع، قال تعالى: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ } (سورة الأعراف: 88)، وهؤلاء هم عليَةُ القوم، وسادة المجتمع، وكانوا يمتازون بالكِبر وهم الذين طلبوا من رسول الله أن يطرد ضعاف المسلمين، كشرط لاتباعه، قال تعالى: "{51} وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ } (سورة الأنعام: 52).

ولكنّ الله تعالى أمر بدعوتهم بالحسنى، فقال تعالى: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (سورة النحل: 125)، فعندما أرسل الله الرسل لم يبعث معهم الجيوش لفرض ما عندهم على الناس، ولم يُنزل معهم الأسلحة لبيان ما يريدون، بل زوّدهم بالعلم والحكمة، وآتاهم الحجج لمحاورة الناس ومجادلتهم بالتي هي أحسن.

كما وأمرهم بالصبر على أقوامهم، فقد خاطب سيدنا محمد ﷺ قائلًا: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ } (سورة الأحقاف: 35)، وآتاهم الله البيان ليوضحوا للناس الدين الحق، وأعطاهم المقدرة على مخاطبة العقول، فأقاموا على أقوامهم الحجج البينة وحاورهم بالحسنى، إذ لا بدّ من لغةِ الحوار والجدال بالحسنى، قال تعالى: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (سورة النحل: 125).

يقول ابن كثير: (يقول الله تعالى آمرًا رسوله محمد ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة، وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنّة، والموعظة الحسنة: أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها؛ ليحذروا بأس الله تعالى، وجادلهم بالتي هي أحسن، أي: من احتاج منهم إلى مناضرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفقٍ ولين وحسن الخطاب) [23].

فهذا أمر الله تعالى الذي يعلم ما في النفوس، وهو أعلم بما يصلحها، ويعلِّم ربّ العالمين نبيّه هذا الأسلوب، ليكون درسًا لكل أمته من بعده، ويقتدي به ﷺ كل من يريد أن يسير على درب الدعوة إلى الله، وهذا أسلوب الداعية الناجح، كيف لا وهو من عند علّام الغيوب.

ولو تمعّنت في الآيات القرآنية والنصوص النبويّة، لعلمت أنّه ينبغي أن يكون الداعية ليّنًا في خطابه، حتى ولو مع الفاجر، حيث أمر الله سبحانه وتعالى سيدنا موسى بإلانة القول لأخبثِ أهل الأرض فرعون، فكيف بالحنيف.

---

[23] الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص781.

يقول الشيخ ابراهيم الوقفي: (وفرعون ملك مصر، أسوأ مثل في الكفر والعصيان، وموسى عليه السلام أعظم رسل بني إسرائيل، وهو الذي أنزل الله عليه التوراة، ورغم ذلك كلّه يأمره سبحانه وتعالى ومعه أخوه هارون بأن يخاطبا فرعون بكلام رقيقٍ ليّنٍ وسهل، لعلّه يتذكر أو يخشى، فيرجع عما هو فيه من الكفر والهَلَكة، ويلتزم طاعة خالقه، خشيةً من عذابه وخلوده في جهنم، فهذا هو الأسلوب والسبيل الوحيد لنجاح الدعوة في الحوار والمناقشة) [24].

إن دستور الدعوة يمثّل العلاقة التي يجب أن تكون بين المخاطِب والمخاطَب، فهذا الدستور وضعه الله للدعاة بعدما أراهم ما حصل لسيدنا محمد ﷺ من أذى، وكيف أمره الله تعالى أن يقابل كلّ هذا بالعفو والصفح والحلم وحسن الخطاب، من فضاضةٍ في الكلام أو غلظةٍ في القلب، وبهذا الأسلوب استطاع الرسول ﷺ أن يتألف القلوب ويجمع الناس حوله، وهكذا خطاب الداعية إذا أراد أن ينجح في دعوته.

وكم من القصص التي حصلت في عهده ﷺ، جعلت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فذاك الأعرابي الذي بال في المسجد، وكيف انتهره الناس، وانظر إلى أسلوبه ﷺ، وخطابه لذلك الأعرابي وكيف علّمه، مما جعله يُقبل على دين الله ويرضى بحكمه.

فهذا رسول الله ﷺ الذي يقول له ربّه، {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } (سورة القلم:4) يُلين القول في الخطاب ويستخدم أفضل الأساليب في الكلام؛ ليعلّمنا كيف ينبغي أن يكون المخاطِب تجاه المخاطَب، وأنّه ينبغي أن يُراعي جهله وقلّة علمه.

صور من مخاطبة الأنبياء لأقوامهم:

وهكذا كان الأنبياء في خطابهم لأقوامهم قبل سيدنا محمد ﷺ، ألانوا جانبهم لأقوامهم، وبالحسنى خاطبوهم، بل وتحملوا أذاهم، ودعوهم إلى الله تعالى، فقال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: { فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} (سورة الأحقاف: 35).

فعندما خلق الله الخلق أرسل إليهم الرسل، {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً } (سورة الإسراء: 15) فما تُرك الناس عبثاً، بل أرسل الله إليهم الرسل، يبيّنون لهم طريق النجاة، ويحذّرونهم من الضلال والزيغ، يبشرونهم بالجنة إن أطاعوا واتبعوا أمر الله، وينذرونهم من النار إن عصوا أمر الله، فقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} (سورة النحل: 36).

وهذه بعض الصور من خطاب الانبياء لأقوامهم، وإشفاقهم عليهم، وتحذيرهم من الشركِ ونتائجه، وحضّهم على عبادة الله وحده، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ } (سورة الانباء: 25) وقال: {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ {45} (سورة الزخرف: 45).

[24] الوقفي، الحوار لغة القرآن الكريم والسنة النبوية، ص87.

أولًا: أسلوب الخطاب بين نوح عليه السلام وقومه:

أرسل الله تعالى سيّدنا نوحاً إلى قومه، وذكر قصّته في القرآن الكريم، بل وسمّى سورةً كاملةً باسمه عليه السلام، وهي سورة نوح، تفصّل أسلوب الخطاب الذي جرى بين نوح عليه السلام وقومه، قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ {1} قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ {2} أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ } (سورة نوح: 1– 3).

فقد أرسل الله نوحًا إلى قومٍ أُشربوا حبّ عبادة الأوثان، واستقرت في قلوبهم يتوجهون إليها بالدُّعاء، فأنذرهم قبل العذاب ودعاهم بكل لطفٍ ولينٍ، وانظر إلى التصوير القرآني لخطاب نوح عليه السلام، وجواب الملأ من قومه، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ {25} أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ {26} فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ {27} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ {28} وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ {29} وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ {30} وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْرًا اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ {31} قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ } (سورة هود: 25– 32)، يا له من خطاب مشفق، وجدالٍ معاند.

يقول محمد أحمد جاد المولى: (فأرسل الله إليهم نوحًا عليه السلام، وكان رجلًا فتيق اللسان، واضح البيان، رزين الحصان، بعيد الأناة، رزقه الله صبرًا على الجدل، وقدرةً على تصريف الحجج، وبصيرًا بمسالك الإقناع، دعاهم إلى الله فأعرضوا، فأنذرهم العقاب فعموا وصمّوا، ووجّه نظرهم إلى سرّ الوجود وإبداع الكائنات، كل هذا يتحدّث بلسانٍ فصيح، وينطق ببرهانٍ صحيح عن إلهٍ واحد وقدرةٍ فذّةٍ عجيبة) [25].

وكان نوح عليه السلام من أولي العزم، فمكث فيهم طيلة حياته وما سئم، ينتظر اليوم الذي يصبحوا به مؤمنين، وما فقد الأمل في هدايتهم، حتى أوحى الله إليه بعدم هدايتهم، قال تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ } (سورة هود: 36) عندها دعا عليهم نبي الله نوح بقوله: {وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا } (سورة نوح: 26)، لتأتي بعدها النتيجة الحتمية وأنّ الله لا بدّ أن يهلك الكافرين.

ثانيًا: أسلوب الخطاب بين صالح وثمود:

[25] جاد المولى، قصص القرآن، ص19.

أرسل الله سيدنا صالح إلى قومه ثمود، وكشأنِ الكافرين كذّبوه، وما أطاعوه، وقد ذكر الله تعالى قصّته معهم، وصور خطابه لهم في أكثر من موضع في القرآن الكريم، قال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ {61} قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ {62} قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ {63} وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ {64} فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ } (سورة هود: 61– 65).

قال ابن كثير: (وهذا تلطّف منه لهم في العبادة، ولين الجانب، وحسن خطابٍ في الدعوة لهم، فما عذركم عند الله؟ وما يخلصكم من بين يديه وأنتم تطلبون منّي أن أترك دعاءكم إلى طاعته، وأنا لا يمكنني هذا لأنّه واجبٌ عليّ، لو تركته لما قدر أحدٌ منكم أن ينصرني، فلا أزال أدعوكم إلى الله وحدَه حتى يحكم الله بيني وبينكم) [26].

وهذا هو تلطّف نبي الله صالح في خطاب قومه، وقد ألان لهم جانبه، فدعاهم إلى عبادة الله وحدَه، فطلبوا الآيات استكبارًا وعنادًا، ولكن الله إذا أرسل الآيات عذّب المتكبرين الجاحدين، فقد جاء في مسند الإمام أحمد: (لمّا مرّ رسول الله ﷺ بالحِجر قال: لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح، فكانت تَرِد من هذا الفجّ وتصدر من هذا الفجّ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله عزّ وجل من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله عز وجل، قيل من هو يا رسول الله؟ قال: أبو رُغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه) [27].

لقد تحبّب إليهم نبي الله صالح بقوله يا قوم، وخوّفهم من تكذيب آية الله، والإعتداء على الناقة ولكن وكما مضت سنّة الأولين، كذّبوا صالحًا وعقروا الناقة، وظلموا بالآيات وبقي يتحبّبُ إليهم بحسن خطابه حتى آخر لحظة قبل مجيء العذاب، فقال تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ } (سورة الأعراف: 79).

ثالثًا: حسن الخطاب عند نبيّنا محمد ﷺ

وما أحوجنا أن نعرف أصول الخطاب كما كان عند أنبياء الله تعالى ، وعند نبيّنا محمد ﷺ تحديدًا فهو سيّد من وعظ، وخير من خطب، وأوتي حسن الخطاب، فهم الذين ينبغي الاقتداء بهم، فقد قال ربّ العالمين: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } (سورة الأنعام: 90).

---

[26] الدمشقي، البداية والنهاية، ج1، ص133.

[27] الشيباني، المسند، حديث رقم 13746، ج4، ص222.

إنّهم قدوة البشرية، منهم نتعلم حسن الخطاب، وما ينبغي على المخاطِب أن يكون عليه تجاه المخاطَب، فقد قال الله تعالى معلمًا نبيّه محمد ﷺ المنهج الصحيح: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي } (سورة يوسف: 108)، فهذا هو أسلوب الخطاب لأي داعية إلى الله، وصدق الله إذ يقول: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (سورة النحل:125).

لقد كان رسول الله ﷺ حريصًا أن يدخل كل الناس في دين الله، فخاطبهم خير خطاب، حتى قال فيه ربّ العالمين: {لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ } (سورة التوبة: 128)، فكان ﷺ يعمل جهده لتخليصهم من الهلاك، ومن أجل ذلك بذل ﷺ ما بوسعه.

يقول محمد عبدالعزيز الخولي: (إمامُنا في الدعوة والإرشاد، وخاتم النبيين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وقد خاطب الجمهور، وراسل الملوك، وكان إمامُه كتاب الله يعمل بإرشاده، ينفذ أمره، ويتجنب نهيه، فكان كلامُه على الناس بردًا وسلامًا، ويقينًا وإيمانًا) [28].

فها هو سيدنا محمد ﷺ يصبر على التكذيب، والأذى، والاتهام بالجنون، والسّحر، والكهانة، والسفه، والضلال، وكان رسول الله كلما خاطبهم آذوه، وكلما ناقشهم كذّبوه، فصبر ﷺ على أذاهم، ولم يضق بم ذرعًا، بل كان يدعو الله لهم بالهداية، "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" [29] ، فلم ييأس منهم، ولم يردّ على جهلهم، ولنا في رسول الله أسوةٌ حسنة، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً } (سورة الأحزاب: 21) قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ } (سورة آل عمران: 159).

يقول سيد قطب: (فالناس بحاجةٍ إلى كنفٍ رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشةٍ سمحة، وإلى ودٍّ يسعُهم، وحلمٍ لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، بحاجةٍ إلى قلبٍ كبير، يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، وبحمل همومهم ولا يعنيهم بهمّه، ويجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية، والعطف والسماحة والودّ والرّضا، وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ) [30].

فالمحاور العالم يُدرك أثناء خطابه التفاوت بين الناس، والداعية الناجح يخاطب الناس بالحسنى؛ لأن همه الوصول إلى الحق، وإيصال الحق للناس، وبما أنّه هذا هو الهدف عند الداعية المسلم، فهو يعرف أنه ينبغي أن يحاور الناس بالحسنى، فقد قال ربُّ العزّة: {ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ } (سورة النحل: 125).

---

[28] الخولي، إصلاح الوعظ الديني، ص26.

[29] البخاري، صحيح البخاري، باب حديث الغار وما بعده، حديث رقم 3477، ص412.

[30] قطب، في ظلال القرآن، ج1، ص500.

ولو نظرت من خلال سيرته ﷺ، لوجدت أنه كان يحاور الناس بالحسنى، ومن غير عنف ولا إساءة لمن يخاطب، وهكذا يكون الداعية في خطابه، فينظر إلى من يخاطبهم نظرة إشفاق، ويحرص على أن ينقذهم من الهلاك ويبذل من أجل ذلك كلّ ما بوسعه.

المحور الثالث: المخَاطب به: وهو موضوع الدعوة:

عندما خلق الله تعالى الخلق أرسل الرسل بالرسالات؛ لتنظيم حياة الناس فآمن بالله قسم وكفر قسم آخر، {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ } (سورة هود: 118) فأرسل الله تعالى لكل أمّة رسولًا، {وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ } (سورة فاطر: 24) ورسالة أي رسول هي موضوع دعوته، وهي ما يخاطب به قومه، وقد خاطب الأنبياء جميعًا أقوامهم بعقيدةٍ واحدة، وهي عقيدة الصفاء من الشرك، وعبادة الله وحده، قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ } (سورة النحل: 36) ولعلنا رأينا جانبًا من دعوات الأنبياء لأقوامهم، وكيف تحملوا أذاهم في سبيل دعوتهم.

ثم شاء الله تعالى أن تكون رسالة سيدنا محمد ﷺ خاتمة الرسالات، فبعث الله سيدنا محمدًا للناس كافّة، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } (سورة سبأ: 28) وقال رسول الله ﷺ: (أُعطيتُ خمسًا لم يُعطهنَّ أحدٌ قبلي ولا أقوله فخرًا: بُعثتُ إلى كل أحمرٍ وأسود، فليس أحمر ولا أسود يدخل في أمتي إلا كان منهم، وجُعلت لي الأرض مسجدًا) [31].

وبما أن سيدنا محمد ﷺ خاتم الرسل، فرسالته خاتمة الرسالات، ليكون بذلك دين الإسلام هو الدّين الذي ارتضاه للناس، فقال تعالى: { إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ} (سورة آل عمران: 19)، ليكون الإسلام هو موضوع الدعوة، وهو محل الخطاب.

فالإسلام هو: (الخضوع والانقياد والاستلام لله رب العالمين خضوعًا اختياريًا لا قسريًا، وانقيادًا تامًا للشرع بلا قيدٍ أو شرط) [32]، ومن معنى الإسلام نعرف أن اتّباعه واجب، فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمّة يهوديٌّ ولا نصراني، ثمّ يموتُ ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار"[33] ، وهذه دلالة واضحة صريحة على أنه لا يُقبل أبداً إلا الإسلام، وبذلك يقول تعالى{وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (سورة آل عمران: 83).

---

[31] الشيباني، مسند الإمام أحمد، حديث رقم 2256، ج1، ص414.

[32] زيدان، أصول الدعوة، ص10.

[33] النيسابوري، صحيح مسلم، باب وجوب الإيمان برسالة سيدنا محمد ﷺ، ونسخ الملل جملة، حديث رقم 240، ص52.

وهذا من جهة خطاب العقيدة، أما من جهة خطاب الدعوة، فقد رأينا كيف كان الأنبياء يلينون جانبهم أثناء خطابهم الدعوي، وكيف تحببّوا إلى أقوامهم، وما يئسوا من اسلامهم، بل كانوا تزدادُ عزيمتهم كلما ازداد أذى أقوامهم لهم، ويبقوا على هذا الحال حتى يأتي وعدُ الله.

وأما بالنسبة لسيدنا محمد ﷺ فقد كان حريصًا على إسلامهم، ويواصل الليل بالنهار طمعًا في دخولهم في دين الله، حتى قال له ربُّ العالمين: { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا } (سورة الكهف: 6).

ولا بد من مراعاة حال المخاطَبين، وكان ﷺ يجعل اللين في الخطاب شعاراً له، وكم من القصص التي حصلت في عهده ﷺ، جعلت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، كقصّة الأعرابي الذي بال في المسجد. من حديث أنس (أن أعرابيًا بال في المسجد، فقاموا إليه، فقال رسول الله عليه وسلم: لا تزرموه، ثمّ دعا بدلوٍ من ماء فصبَّ عليه) [34].

وانظر إلى أسلوبه ﷺ وجميل خطابه لذلك الأعرابي، مما جعله يُقبلُ على دين الله ويرضى بحكمه، وهكذا كان ﷺ يُلين القول في الخطاب، ويستخدم أفضل الأساليب في الكلام.

المبحث الرابع

آثار تجديد الخطاب الإسلامي

وبما أنه بات من الضروري تجديد الخطاب الديني؛ لغايةِ إبقاءه حيًا في النفوس، بعودة الناس إلى التزام أحكامه وسننه، وإماتة ما علق فيه من البدع، وإزالة ما علق في أذهان بعضهم عن الإسلام من صور مشوّهة، باستنادٍ إلى النصوص الثابتة في الكتاب والسنة والتي توصف بالثبات، سيّما وقد غرقت المجتمعات في مستنقع من المشاكل، حيّرت العالم، ونشأت أجيال تستقي أفكارًا خاطئة، تطوّرت إلى تيارات تتبنى العدوانية، وتسعى إلى نشر هذا الفكر وخاصّة بين فئة الشباب.

إنّ تجديد الخطاب الديني بات مهمًا؛ وذلك لتنقيته من الغلوّ الذي ارتكبه البعض جهلًا وعدوانًا، ودحر أفكار المتشددين، التي بات الغرب يربطها بالإسلام، ويصف الإسلام بالإرهاب والتطرف، جرّاء هذه التصرفات التي يقوم بها البعض ممن ينتسبون إلى هذا الدين.

إنّ الخطاب الديني هو طريقة التعبير عن واقع الدين، فالخطاب الإسلامي يعبر عن واقع الإسلام، فهو أداة الاتصال المعرفي، ومن خلال الخطاب يمكن أن تتكون الأفكار عن صاحب الخطاب، فإنه يُعتبر الطريقة الهامة لنشر الدعوة وتبليغ الرسالة، فما كان يرتضي المسلمون طريقةً لهم في توصيل الرسالة، فأداة التوصيل في العصر الحديث وفي أيامنا هذه هو الخطاب الإسلامي.

إنّ مما وجّه إلى الخطاب الإسلامي، واعتبرت من المآخذ عليه الركود، والبعد عن التطور والإبداع، مما يؤدي إلى الروتين القاتل، والملل الدائم، كما وأدّى إلى التكرار فمات التطوير، كل هذا أدّى إلى ضعف الهمة والفتور، وبات التبليغ

---

[34] البخاري، صحيح البخاري، باب الرفق في الأمر كله، حديث رقم 6025، ص712.

محصورًا في نطاق ضيق ومحدود، وهذا بدوره أدى إلى أن يتولى مهمة التبليغ أصحاب التطرف، ليصوّروا الدين من منظارهم، فيزداد بذلك الهجوم على الإسلام.

ويذكر الباحث بعض الآثار للخطاب الديني على حاله الأولى قبل تجديده، ومن أهمها:

1. ظهور الخطاب الأصولي بالمذهبية الضيقة، ولغة الحزبية، ومما أدّى إلى ظهور الاختلاف، والكل يدّعي أنه على صواب، وغيره على باطل، فمات التعاون بين أبناء المسلمين، وفترت الهمم، وضعف التبليغ لدين الله، وبعد أن تأجّجت الخلافات، وزادت الصدامات، ثمّ نشأت تيارات مختلفة في الأفكار، خطّأ بعضهم بعضًا، وأدّى ببعضهم إلى تكفير البعض الآخر، لينشأ بعدها أحزاب سياسية متناحرة، بات شعارهم العنف والتطرف، والتشدد والتعصّب المقيت.
2. سياسة الإقصاء، وعدم قبول الآخر مما أدى إلى النفور من الإسلام، واستغل أعداؤه هذه النقطة من الضعف، فصوّروا الإسلام على أنه أصولي يرفض الآخر، بل ويرفض أبناؤه بعضهم بعضًا.

فانتشر في ظل هذه الظروف مصطلح الخطاب الديني، وأول من نادى بهذا الخطاب هم الغرب، وقد عانت الأقطار الإسلامية جميعًا مشاكل سياسية وثقافية واقتصادية، نتيجة تراجع المسلمين في تطبيق قرآنهم وأحكام دينهم، واختمرت فكرة تجديد الخطاب الديني عند أبناء المسلمين، فهبّ العلماء العاملون على صياغةٍ لهذا الخطاب، مؤكدين الحفاظ على الثوابت الأساسية من القرآن الكريم والسنّة المطهرة، بقصد تلافي الأخطاء السابقة، ونزع الفكر المشوّه، الذي ألصقه أعداء الدين، وأخطاء بعض أبناءه، فبات النداء أوسع من أجل تجديد الخطاب الإسلامي.

ومن أهم آثار تجديد الخطاب الإسلامي:

1. نبذ المذهبية المقيتة والحزبية البغيضة، والدعوة إلى الوسطية والاعتدال.

إنّ فهم الوسطية يقرّره القرآن الكريم، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } (سورة البقرة: 143) وقد جاءت الآيات القرآنية توضح أنّ هذا الدين قائمٌ على الوسطيةِ والاعتدال، وكذلك السنّة النبوية المطهرة، فقد كان رسول الله يأمر بالاعتدال حتى في العبادة، كما في قصّة النفر الذين جاءوا رسول الله ﷺ، كما في صحيح البخاري: (جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنّهم تقالّوها، فقالو: وأين نحن من النبي ﷺ، وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فإنّي أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: وأنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إنّي أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكنني أصوم وأفطر، وأصلي الليل وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي) [35].

[35] البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم 5058، ص614.

هذا هو نهج رسول الله ﷺ في كل حياته، يتوسط حتى بالعبادة، وهو أقرب الناس إلى الله وأتقاهم لله، فكان يأمر الناس بالاعتدال في كل أحوالهم، وينهى من يتطرف بعبادته ويتشدد في حياته؛ لأنّ الذي يتشدد في العبادة لا بدّ أن يتسربَ إليه الملل ويدخل إليه اليأس، وقد ينتهي الأمر بالمُغالي والمُتشدّد إلى الانحراف.

يقول الدكتور علي الصلابي: (فالإسلام كله وسط، وهذه الأمّة هي أمّة الوسط، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } (سورة البقرة: 143) ولذلك جاء القرآن مقررًا لمنهج الوسطية في أبواب الاعتقاد والعبادات، والحكم والتحاكم، وفي باب الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من الأبواب والمجالات) [36].

وإن من آثار الوسطية أن ينتشر التعايش بين الناس، والتقارب بين آرائهم وأفكارهم، فينبغي أن تكون الوسطية في الخطاب الإسلامي، بعيدًا عن الغُلوّ والتطرّف، فيقبل الرأي والرأي الآخر، بل ولقد كان رسول الله يتعايش مع أهل الكفر في مكّة، ولمّا وصل إلى المدينة كان من أهم أعماله بعد وصوله إلى المدينة المنورة، أن عقد اتفاقية دفاع مشترك مع اليهود عن موطنهم المدينة، وبقي معهم على هذا الإتفاق حتى نقضوه هم.

2. الاجتهاد وايجاد الحلول للأمور المستجدّة، مع الحفاظ على ثبات نصوص القرآن الكريم، والسنّة المطهرّة:

يقوم الدين على نصوص ثابتة من القرآن الكريم، والسنّة النبوية المطهّرة، ولا بدّ من المحافظة على هذه النصوص، حتى لا يتعرض للتحريف والتبديل، وإلا أصبح كالديانات السابقة، عندما حرّفت الكتب السابقة، فقد تعرّضت للتحريف والتبديل، وعلى أهواء علمائهم، على أنّ الصحابة رضوان الله عليهم كانوا حريصين كل الحرص على حفظ كتاب الله من الضياع، أو التحريف، فحفظوه وفهموا معناه، والتزموا به، وتأدّبوا بآدابه، وتخلّقوا بأخلاقه.

يقول الدكتور أبو شهية: (وقد أحلّ الصحابة رضوان الله عليهم القرآن في المحل الأول من نفوسهم، فأنزلوه المنزلة اللائقة به، يتنافسون في حفظِ لفظهِ، ويتسابقون في فقه معناه، وجعلوه متعبّدهم في ليلهم ومسلاتهم في فراغهم، وصاحبهم في أسفارهم، وأنيسهم في وحدتهم، وصديقهم الصدوق في منشطهم ومكرههم، ومستشارهم في شؤون دينهم ودنياهم) [37].

فهذا حالهم مع كتاب الله رُغم أنّ الله تعالى تكفّل بحفظه، {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (سورة الحجر: 9) إلا أنّ الصحابة أدّوا ما عليهم تجاه كتاب ربهم، كما فعل أبو بكر وعثمان رضي الله عنهما في جمع القرآن، وما قلّ اهتمامهم بالسنة النبوية كذلك عن اهتمامهم بكتاب الله.

فقد كانت جهودهم عظيمة في جمع أحاديث رسول الله ﷺ، ثمّ تابع العلماء المختصون هذه الجهود، فقيّض الله لسنّة نبيّه ﷺ من يذبّ عنها، ويبيّن صحيحها وسقيمها، وكشف من وضع في سنّة رسول الله، حتى أصبح لها علومًا مستقلة.

---

[36] الصلابي، الوسطية في القرآن الكريم، ص181.

[37] أبو شهية، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص351.

يقول الدكتور السيد نوفل: (صحابة رسول الله ﷺ هم أحبّ الناس إليه وهو أحبّ الناس إليهم، وهم الذين سارعوا إلى الإيمان به، ولقد كانوا رضوان الله عليهم يترصدون أقواله، فيحفظونها، ويريدون سنته، فيتمسكون بها، وينقشونها على صفحات قلوبهم، ويجلسونها في أعماق بواطنهم، وإذا تذكرنا ما بيّنا من فطرتهم، المنطوية على قوّة الحفظ، والاعتماد على السماع، لأدركنا أنهم كانوا حفظةً لسنّة رسول الله ﷺ، حفظوها ودوّنوها في الصدور والسطور، وكانوا يكتبونها في عهد رسول الله وبعده) [38].

ثمّ اجتهد العلماء العاملون، وبحثوا في إيجاد حلول لكل معضلة تطرأ، وهذه صلاحية هذا الدين لكل زمان ومكان، فلا يتوقف الاجتهاد ما دامت القضايا تطرأ، فيكون الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص، أو ورد فيه نص ظني الدلالة، ولم يحرم ديننا المجتهدين من أجر الاجتهاد، حتى ولو أخطئوا، وهذه إشارة واضحة، إلى أنّ باب الاجتهاد ينبغي أن يبقى وسيبقى ما دامت القضايا تطرأ.

يقول عبدالكريم زيدان: (والاجتهاد لا يقيده زمانٌ ولا مكان، بمعنى أنه ليس مخصوصًا بوقتٍ دون وقت ولا بمكان دون مكان، لأنّ مبناه توافرت شروطه في الشخص، وهذا أمرٌ ممكنٌ في كل عصر، فلا يجوز قصره على زمانٍ دون زمان، فإن فضل الله واسع، غير محصور بالمتقدّمين دون المتأخرين، وقد نصّ أهل العلم على أنه لا يجوز أن يخلو زمانٌ من مجتهدٍ قائم، يبيّن للناس ما نزّل ربهم إليهم، وبلّغهُ سيدنا محمد ﷺ)[39].

3. ينتشر الأمن والأمان بين أفراد المجتمع.

إنّ من أهم مطالب العيش الكريم أن يكون أمنٌ وأمانٌ في المجتمع، فإذا فُقد الأمن كانت الحياة صعبة، والمعيشة نكدة، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: "من أصبح معافىً في بدنه، آمنًا في سربه، عنده قوتُ يومه فكأنما حيزت له الدنيا"[40].

فتجديد الخطاب الإسلامي يحارب التطرف، ويقاوم الأفكار التي تقوّض أركان الأمن، إذ لا بدّ من نشر الأمن؛ لنشر الدين أولًا، وحتى ينشر التعايش بين الناس والتراحم فيما بينهم، والرفق في كل الأمور، ويتمثل ذلك في قوله ﷺ: "إنّ الله رفيق يحب الرفق في الأمر كلّه، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه"[41].

ولا بدّ من اللين حتى ومع غير أبناء هذا الدين، ولا أدلّ على ذلك من قول ربّ العالمين لسيدنا موسى، وأخيه هارون، عندما ابتعثهم الله إلى فرعون، الذي قال للناس: { عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} (سورة القصص: 38) فعلى كفره

---

[38] نوفل، الدعوة إلى الله تعالى، خصائصها، مقوماتها، مناهجها، ص138.

[39] زيدان، الوجيز في أصول الفقه، ص407.

[40] ابن حبان، صحيح ابن حبان، حديث رقم 670، ص166.

[41] النيسابوري، صحيح مسلم، باب الرفق، حديث رقم 2593، ص731.

وإلحاده، وعلوّه وعناده، إلا أنّ الله أمر سيدنا موسى وهارون بالقول اللين، {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى } (سورة طه: 44).

يقول القرطبي: (القول اللين هو الذي لا خشونة فيه، يُقال: لان الشيء يلين لينًا وشيءٌ لين، فإذا كان موسى أُمر بأن يقول لفرعون قولًا لينًا، فمن دونه أحرى بأن يقتدي بذلك في خطابه، وأمره بالمعروف في كلامه، وقد قال تعالى: {وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً } (سورة البقرة: 83) على رجائكما وطمعكما أن يتذكر) [42].

إن الناس يختلفون في مللهم واعتقاداتهم ومنطقهم وآرائهم وفي عقولهم، وهذا ما ذكره رب العزّة في القرآن الكريم، قال تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ {118} إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } (سورة هود: 118- 119). ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي لا يزال الخُلف بين الناس، في أديانهم، واعتقاداتهم، ومللهم، ونحلهم، ومذاهبهم، وآرائهم، وفي قوله تعالى: { إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ } (سورة هود: 119). أي المرحومين من اتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أُمروا به من الدين) [43].

والداعية المسلم يحاول كل جهده أن يوصل الحقّ للآخرين، ولكن لا بدّ أن يعرف مفتاح القلوب، فلا يكسر الباب كسرًا، بل ينبغي أن لا يكون العنف أبدًا في خطابه ولا أعماله، بل يحاور ويخاطبهم بالحسنى، فيفتح آفاق التلاقي والقبول، ويقلل الجفوة، ويزيل أسباب البعد بين الناس.

الخاتمة

إن الخطاب حوار ولا بدّ للداعية أن يلتزم بأخلاق وآداب الخطاب، وهذه أخلاق الداعية التي ينبغي أن يستمدّها من مصادرا الثابتة: القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة، فما سُمعت من رسول الله ﷺ كلمةٌ تسيء إلى من خاطبهم قط، فقد قال لهم ربّ العالمين: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } (سورة القلم: 4) فما كان رسول الله ﷺ صخّابًا ولا لعّانًا ولا بالفاحش البذيء، وهكذا كل داعية ينبغي أن يكون خلقه القرآن، فلا يسيء إلى أحد ولا يزدري رأيًا أبدًا.

فعندما أقام عليهم رسول الله الحجة تلو الحجة، أمره رب العالمين أن يقول لقومه: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } (سورة سبأ: 24) فعلى جهلهم وظلمهم لأنفسهم ولغيرهم، لم يقل لهم نبي الله ﷺ بصورة مباشرة: يا من أنتم على ضلال، بل قال: إنا لضالون أو مهتدون، وأنتم ضالون أو مهتدون، ورب العزّة يعلم من هو الذي على الضلالة، ومن هو الذي على الهدى.

---

[42] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص134.

[43] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص610.

يقول ابن قتيبة: (المعنى: إنا لضالون أو مهتدون، وإنكم أيضًا لضالون أو مهتدون، وهو عزّ وجل يعلم أن رسول الله ﷺ المهتدي، وإنّ مخالفه الضالّ، وهذا كما تقول للرجل يكذّبك ويخالفك: إنّ أحدنا لكاذب، وأنت تعنيه فكذّبته من وجه وأحسن من التصريح) [(44)].

اللهم إنّا نسألك أن ترزقنا الحكمة في الخطاب وفي الأمر كلّه، {وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا} (سورة البقرة: 269).

المراجع

القرآن الكريم

- البخاري، محمد بن اسماعيل بن ابراهيم، صحيح البخاري، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2004م، ط1.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، مكتبة ألفا، الهرم، 2008م، ط1.
- ابن حبّان، محمد ابن حبّان بن أحمد، صحيح ابن حبّان، بيت الأفكار الدولية، عمّان، 2000م، ط1.
- السجستاني، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داوود، مكتبة المعارف، الرياض، 2007م، ط2.
- الشيباني، أحمد بن حنبل، المسند، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1994م، ط3.
- القاسمي، محمد جمال الدين، محاسن التأويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، ط1.
- الزيات وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، اسطنبول، 2000م، ط1.
- العظيم أبادي، محمد شمس الحق، عون المعبود، شرح سنن أبي داوود، مكتبة المعارف، الرياض، 2007م، ط2.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرّم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1994م، ط3.
- الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني، الكليات، دار الرسالة، بيروت، 1998م، ط1.
- يونس، د محمد يونس، تجديد الخطاب الإسلامي، الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2013م، ط1.
- زيدان، د عبدالكريم، الوجيز في أصول الفقه، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1997م، ط7.
- البوطي، د محمد سعيد رمضان، الإسلام والتجديد المطلوب، مؤسسة الرسالة، بيروت، 2007م، ط1.
- نوافلة، د عمر حابس نوافلة، الإسلام وقضايا العصر، المكتبة الوطنية، عمّان، 2018م، ط1.
- القرضاوي، د يوسف، فتاوى معاصرة، مكتبة وهبه، القاهرة، 1998م، ط1.

[(44)] ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص269.

- عبدالمطلب، د فاطمة محمد، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، دار الجنان، عمّان، 2007م، ط1.
- الآمدي، سيف الدين الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م، ط1.
- الجرجاني، عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز، مطبعة المدني، القاهرة، 1992م، ط3.
- السباعي، د مصطفى، السنّة ومكانتها ف التشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي، دمشق، 1997م، ط2.
- الترابي، حسن عبدالله، تجديد الفكر الإسلامي، دار القرافي، الرباط، 1993م، ط1.
- البيانوني، د محمد أبو الفتح، مدخل إلى علم الدعوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1995م، ط1.
- اسعيفان وذياب، اسعيفان مصطفى ورشا ذياب، فقه الدعو إلى الله، دار البداية، عمّان، 2011م، ط1.
- الدمشقي، اسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفيحاء، دمشق، 1998م، ط2.
- الوقفي، الشيخ ابراهيم، الحوار لغة القرآن الكريم والسنّة النبوية، دار الفكر العربي، دمشق، 1998م، ط1.
- جاد المولى، محمد أحمد، قصص الفرآن، مكتبة الثقافة، عمّان، 1992م، ط1.
- الدمشقي، الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، 1990م، ط2.
- الخولي، محمد عبدالعزيز، إصلاح الوعظ الديني، دار المعرفة، بيروت، 1969م، ط7.
- قطب، سيد، في ظلال القرآن، دار ابن الهيثم، القاهرة، 2004م، ط1.
- زيدان، د عبدالكريم، أصول الدعوة، مؤسسة الرسالة، دمشق، 2014م، ط1.
- الصلابي، د علي محمد، الوسطية في القرآن الكريم، دار المعرفة، بيروت، 2005م، ط1.
- أبو شهبة، محمد بن محمد، المدخل لدراسة القرآن الكريم، دار الجيل، بيروت، 1992م، ط1.
- نوفل، د السيد، الدعوة إلى الله، مطبعة الحضارة العربية، الفجالة، 1977م، ط1.
- القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م، ط5.